الفصل الرابع

التجربة الأولى

ظلت الحكومة العالمية أو التنظيمات الدولية فيما قبل القرن التاسع عشر مجرد آراء يدلى بها الكتاب، وأفكار تتمخض عنها عقول الفلاسفة. ولكن ما كادت حروب نابليون تضع أوزارها حتى شهر العالم أول محاولة لإنشاء تنظيم يكاد يكون حكومة دولية قائمة بالفعل، لا فى رءوس المفكرين، ولا فى ثنايا الكتب كما كان الحال من قبل..

إلا أن حروب نابليون نبهت دول أوروبا إلى ضرورة التعاون فيما بينها على السلام، وكان انتهاء هذه الحروب فرصة لإجراء تجربة جديدة فى محيط العلاقات الدولية، وقد تبلورت هذه التجربة فى عقد معاهدات، وسلسلة من المؤتمرات الدولية أطلق عليها فيما بعد(الكونسرت الأوروبى) وتعتبر نواة لأول حكومة دولية أوروبية.

وفى مؤتمر شاتيون الذى انعقد فى ٥ فبراير سنة ١٨١٤ وضع أول حجر فى بناء المؤتمر الأوروبى حين صرح ممثلو النمسا، وبريطانيا العظمى، وبروسيا، وروسيا لمندوب نابليون قائلين إنهم لا يمثلون أنفسهم أو دولهم فقط وإنما يتكلمون باسم أوروبا كلها..

ولما عادت فرنسا إلى الحكم الملكى عقد هؤلاء الحلفاء معاهدة باريس فى ٣٠ مايو سنة ١٨١٤ وأثبتوا فيها أنهم يعلنون العزم على تقرير سلام

دائم بين الدول يقوم على أساس من التوازن العادل بين القوى المختلفة، ومعنى ذلك أن هؤلاء الحلفاء قد منحوا أنفسهم حق الإشراف على التسويات الإقليمية فى أوروبا.

ودعم أساس المؤتمر الأوروبى بالمحالفة المقدسة، وهى تصريح مشترك صدر عن كل من إمبراطور روسيا، وإمبراطور النمسا، وإمبراطور بروسيا، أعلنوا فيه عزمهم على «أن يسترشدوا فى حكمهم لشعوبهم، وفى علاقاتهم بحكومات الأمم الأخرى بمبادئ المسيحية السمحاء وهى: العدالة، والتسامح، والسلام. وأن يعتبروا أنفسهم إخوانا تربطهم الأخوة الصادقة ببعضهم، وأن ينظروا إلى شعوبهم نظرة الوالد إلى أبنائه». ومع أن هذه المعاهدة لا تتضمن إلا مبادئ عامة لا تقيد الدول الموقعة عليها بأية التزامات محددة، إلا أن واضعها، وهو قيصر روسيا أراد بها أن تكون أول خطوة لإقامة حكم دولى جديد.

والملوك الذين لم يوقعوا هذه المعاهدة فهموا أنها ستكون أداة لحمايتهم من الثورات الداخلية، ولهذا بادروا بالانضمام إليها. وممن بادروا إلى ذلك ملوك فرنسا، والسويد، والنرويج، وأسبانيا، والبرتغال، وهولندة، والدانمرك.

أما إنجلترا فلم توقع على المعاهدة غير أنها دعمتها بأن أبرمت معاهدة رباعية بينها وبين روسيا، وبروسيا، والنمسا. ونصوص هذه المعاهدة الرباعية تلزم الدول الموقعة عليها بأن تحافظ بالقوة المسلحة على الأوضاع الإقليمية والسياسية التى تقررت فى مؤتمرات شومون، وفينا، وباريس، وألا تسمح بعودة عرش فرنسا إلى أحد من أسرة نابليون. ومدة هذه المعاهدة عشرون سنة.

تلك هى المحالفة الرباعية التى تم توقيعها فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨١٥

ويعنينا منها المادة السادسة التى تقول: «لضمان هذه المعاهدة، ولتيسير تنفيذها ولتقوية ما بين الملوك الأربعة من روابط ودية لخير العالم قد اتفقت الأطراف السامية المتعاقدة على أن تجدد فى فترات معينة محدودة عقد اجتماعات تخصص لبحث المصالح المشتركة، ولدراسة الوسائل التى تكون أنفع لرخاء الشعوب وراحتها وللمحافظة على السلام. وتكون هذه الاجتماعات تحت إشراف الملوك مباشرة أو تحت إشراف رؤسائهم.

وقد يكون هذا النص أول محاولة جدية فى تنفيذ فكرة الحكم الدولى. فهذه الدول العظمى قد كونت من نفسها ما يشبه مجلس أمن يصون سلامة الشعوب، ويعمل لإسعادها. وكانوا يعنون بسلامة الشعوب وقايتها من الثورات التى تعصف بعروش الملوك مثل الثورة الفرنسية.

وقد عقد أول اجتماع للمؤتمر الأوروبى فى أكتوبر سنة ١٨١٨ بمدينة إكس لاشابل وأكبر ما يعنينا منه هو أن قيصر روسيا قدم اقتراحًا بشأن عقد معاهدة عامة تكون فيها كل دول أوربا ضامنة لممتلكات بعضها بعضًا، وضامنة لشكل الحكومات القائمة، ولنظمها السياسية التى يكون معمولاً بها حين توقيع المعاهدة.

وهذا الضمان الجماعى الذى تضمنه اقتراح قيصر روسيا يعتبر نواة للضمان الجماعى الذى ورد فى المادة العاشرة من عهد عصبة الأمم.

وقد لقى اقتراح قيصر روسيا استحسانًا وموافقة من دولة بروسيا فأيدته، وتقدم ممثلوها فى المؤتمر يقترحون إنشاء جيش دولى يكفل التنفيذ، ويكون مقره مدينة بروكسل، ويتولى قيادته الدوق ولنجتون الذى هزم نابليون فى واقعة واترلو.

إلا أن المشروع لم ينجح لأن إنجلترا رفضت أن ترتبط بأى ضمان جماعى أوروبى، ولكن عدم نجاح المشروع لم يحل دون توالى اجتماع

سلسلة من المؤتمرات لتنظيم المسائل الهامة المتعلقة بأوروبا. فباسم مؤتمر ترويا تدخلت النمسا سنة ١٨٢٠ لإخماد الثورة التى قامت فى البيمونت ونابلى، وبتفويض من مؤتمر فيرونا تدخلت فرنسا لقمع الثورة التى قامت فى أسبانيا ضد ملكها فرديناند السابع، وكادت سلطة المؤتمر الأوروبى تصل إلى حد التدخل فى شئون القارة الأمريكية إذ أن أسبانيا لها فى القارة الأمريكية مستعمرات تعتبر داخلة فى نطاق الثورة التى تدخل المؤتمر الأوروبى لإخمادها، وخشيت كل من إنجلترا والولايات المتحدة من امتداد أثر قرار مؤتمر فيرونا إلى أمريكا ولكل منهما فيها مصالح حيوية، لذلك أعلنت إنجلترا أن أى تدخل من الدول الأوربية فى المستعمرات الأسبانية يعتبر عملاً عدائيًا موجهًا ضدها، ويدعو إلى الحرب. وتابعتها الولايات المتحدة بإعلان مشابه عرف بمبدأ مونرو، وكان هذا سببًا فى وقف امتداد تدخل المؤتمر الأوروبى فى القارة الأمريكية.

وباسم المؤتمر الأوروبى قامت روسيا وإنجلترا وفرنسا بقتال الأسطول المصرى التركى وهزيمته فى نافارين سنة ١٨٢٨ لمساعدة اليونان فى الحصول على استقلالها.

وهذا المؤتمر هو الذى عضد بلجيكا فى حركتها التى رمت بها إلى الانفصال عن هولندة. وبمساعدته تم الانفصال، ونالت الاستقلال، وأعلن وضعها فى حالة حياد دائم سنة ١٨٣٢.

وزاد نشاط المؤتمر حتى تجاوز القارة الأوروبية، ففى سنة ١٨٣٩ لاحظ أن محمد على صار خطرًا على تركيا، وعلى السلام الأوروبى، فأخذ يعنى بالمسألة المصرية. وفى سنة ١٨٨٨ وضع قواعد لتنظيم الملاحة فى قناة السويس، ثم اهتم بمسألة الملاحة فى نهر الكونغو، ونهر النيجر، وفى سنة ١٩٠٠ نظم حرب البوكسر فى الصين.

وما قام به المؤتمر الأوروبي من أعمال كثيرة جعل المفكرين والسياسيين ورجال القانون الدولي يعتقدون أن قيام مؤتمر دولي عالمي أمر ممكن، فعلى نحو ما أمكن قيام مؤتمر أوروبي حاول تنظيم الشئون الأوروبية يمكن قيام تنظيم دولي.

وكثر الجدل في مقدار نجاح المؤتمر الأوروبي في القرن التاسع عشر، وليس من شأننا هنا استقصاء هذا الجدل، وإنما يعنينا منه استنباط ما يتعلق بتنظيمه القانوني. وأهم ما يلاحظ في هذه الناحية ما يأتي :

١ - لم يضع المؤتمر من أول الأمر، قواعد تخضع لها الأعمال التي يقوم بها، وتوضح المسائل التي تدخل في اختصاصاته، بل سار على سياسة مرتجلة تمليها الظروف، لذلك تراه أحيانًا قد أباح لنفسه التدخل في أخص شئون الدول الصغرى، وأحيانًا تراجع، وظل كذلك من وقت نشأته إلى حين زواله.

٢ - لم يخضع في إجراءاته لنظام ثابت. فهو أحيانًا يشرك الدول الصغرى في مداولاته كما حدث من السماح لملك نابولي بالاشتراك في مؤتمر ليباخ في يناير سنة ١٨٢١ والاستماع إلى شكواه، وتكليف النمسا بناء على ذلك بإخماد الثورة التي كانت قائمة في بلاده. وأحيانًا كان لا يسمح للدول الصغرى بالاشتراك في قراراته بل يفرضها عليها فرضًا رضيت أم لم ترض، ويعلن ما يشاء من التسويات سواء وافقت عليها الدول الصغرى أم لم توافق، ومن ذلك ما حصل في مؤتمرات شومون، وفيينا، وباريس، وإكس لاشابل.

٣ - لم يضع طريقة منتظمة لتنفيذ قراراته وإنما كان يستوحي الظروف، فأحيانًا ينفذ قراراته بحرب تتولاها دولة واحدة بتكليف منه، وأحيانًا تتولاها دول مجتمعة، وأحيانًا ينفذ القرارات بقوة التهديد بالحرب، وقد

ينفذها بإسداء النصح، أو بتوجيه اللوم.

٤ - لم تكن له دورات منظمة بل كان يجتمع حسب مقتضيات الأحوال، ولا يتبع فى اجتماعاته هذه قواعد قانونية ثابتة.

ومهما يكن النقد الموجه إلى هذا المؤتمر فلا ريب أنه يعتبر أول تجربة قامت لإنشاء حكومة عالمية ذات نطاق محدود فى أوروبا. وهذه التجربة قد نبهت الأذهان إلى إمكان إنشاء تنظيم دولى للعالم قد يتحول فيما بعد إلى حكومة عالمية. فقد استرشد واضعو عهد العصبة بتلك التجربة المرتجلة وبالمشروعات النظرية التى سبقتها، فاتخذوا منهما أساسًا للتجربة الثانية التى تتمثل فى عصبة الأمم.